جامعـة القاهـرة

كليـة دار العلـوم

قسـم الدراسات الأدبيـة

أطروحة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الدراسات الأدبية والنقدية بعنوان:

"فنيـة شعـر الالتـزام السيـاسـي بيـن شـوقـي وحـافـظ"

(دراسة موازنة)

إعداد الباحث/

هشـام زغلـول عبدالفتـاح علـي

(المعيد بكلية الآداب– جامعة القاهرة)

تحت إشراف الشاعر الكبير/

أ.د. عبداللطيـف عبدالحليـم عبدالله

(أبو همّـام)

(أستاذ الأدب العربي وعضو مجمع اللغة العربية)

الإهداء

إلى شطر اللغة .. جامع الحسنيين .. شيخ شعراء العربية ..

أبي همام

أنشدك قولي صنوك :

يدل بمعنى واحد كل فاخر ** وقد جمع الرحمن فيك المعانيا

وإذا كانت النفـــوس كبارا ** تعبـت فــي مرادها الأجسام

هشـــام

مقدمة

قديمة هي الموازنات الشعرية قِدَم الشعر نفسِه؛ فمن علقمة الفحل وامرئ القيس في الجاهلية، مرورًا بالثالوث الأموي (جرير والفرزدق والأخطل)، إلى الطائيَّين (أبي تمام والبحتري)، بيد أن هاتيك الموازنات كانت وما زالت تتذبذب على مؤشر النقد المنهجي تبعًا للأهداف التي يتغيَّاها الموازِن من جانب، وطبيعة المناخ النقدي السائد في العصر الذي أنتجها من جانب آخر.

على أن الموازنة بين شوقي وحافظ تستمد قيمتها من حجم الدور المفصلي الذي لعباه في تطور الشعرية الحديثة من ناحية، وزخم الخطاب النقدي المثار حولهما وثرائه من ناحية ثانية، والعلاقة الجدلية التي اشتبكا فيها مع الموروث وانفكّا عنه من ناحية ثالثة، وأخيرًا خصوصية البصمة التي حفرها كل منهما- على طريقته الخاصَّة- في اللاوعي الجمعي للمصريين؛ حين نصَّب الأول من نفسه سفيرًا للقصر، بينما قنع الثاني- مكرهًا لا بطلًا- بأن يكون سفيرًا للشعب، أو متحدثًا باسمه.

كان الفارق بين شاعرينا في الميلاد زهاء عام، وفي الوفاة بضعة أشهر، ولم يكن التلازم أو التقارب بينهما في سني الميلاد والموت فحسب؛ وإنما كان التلازم والتقارب بينهما في طبيعة النشاط الذهني الذي اختاره كل منهما، وفي اختيار ظروف مصر لهما ليكونا صوت الوجدان الوطني، وليكون شعرهما التعبير عن الهيجان والتوثب القومي على مدى أربعين عامًا، كل في حدود موهبته وفي حدود قدرته على الخروج من تحكم البيئة والضغوط السياسية[1].

واضح إذن أننا أمام شاعرين تلازما تلازم مبتدأ وخبر كما يقول النحاة، وموضوع ومحمول كما يقول المناطقة، "وقد كان لهذا التلازم بين الشاعرين تأثير

[1] شوقي وحافظ وأوليات التجديد في القصيدة العربية المعاصرة، عبدالعزيز المقالح، طبعة خاصة بعنوان "شوقي وحافظ في مرآة النقد" بمناسبة احتفال المجلس الأعلى للثقافة بالذكرى الخامسة والسبعين لرحيلهما، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، ٢٠٠٧، جـ٣، صـ٢٣٨،٢٣٧ بتصرف.

غير عادي علي الدارسين وعلي غيرهم من عشاق الأدب والشعر؛ سواء في مصر أو في غيرها من الأقطار العربية حتي أصبح من الصعب أن يذكر اسم شوقي دون أن يضاف إليه حافظ والعكس، وأصبح الشاعران وكأنهما اسم واحد لشيء اسمه الشعر في مصر[١]. ولحافظ فى ذلك نادرة لطيفة؛ "فقد حدث أن كتب المرحوم الدكتور حسين هيكل مقالًا عنهما بعنوان "شوقى وحافظ"، فبلغ حافظًا أن شوقى غضب لذكره معه فى مقال واحد، وكان لا يرى حافظًا ندًا له، فقال حافظ: ولماذا يغضب؟ إننا متلازمان، أما سمع الناس يقولون: "زفتى وميت غمر"؟ فهل غضبت من ذلك زفتى؟ أو غضبت ميت غمر؟ ويقولون "سميط وجبنة" و"خيار وفقوس" و"عسل وبصل"، ثم يعقب - رحمه الله- على ذلك بقوله : أما من يكون العسل، ومن يكون البصل، فهذه مسألة أخرى"[٢].

وعلى صعيد آخر فإن الموازنة بين سياسيات شوقي وحافظ تستمد مشروعيتها باعتبارها الوتر الشجيّ الذي أوْسَعانا عليه عزفًا؛ فبعد طويل تحنّث في محرابهما، اتضح للباحث أن ثمة أرضًا بكرًا - من سياسيات الشاعرين- لم تطأها بعدُ قدمٌ، وكان عليه - والحالة تلك - أن يتحرَّش بها ليقف على نمط من النقد السياسي اللاذع كان شوقي فيه يرمز بالطبيعة ويتقنع بالتاريخ، بينما كان صنوه يتعالى على واقع مصر المؤلم بمفارقات حادة، أو زفرات مكلومة يودعها طي مكتماته السياسية، بما يعني أن هذه الدراسة لم تقف وفقط أمام قضايا سياسية بارزة وأحداث كبرى (حادثة دنشواي- ثورة ١٩١٩- وفد ملنر- تصريح ٢٨ فبراير ... إلخ) بل انفتحت على آفاق أرحب من الشعر القومي والنزعة التركية والخلافة العثمانية، وما تفرع عنهما من المطالبة بالدستور الذي تنكر له بعض خلفائها وتبناه آخرون، بالإضافة إلى ما يتصل بالقادة والزعماء الوطنيين من مدائح ومراثٍ سياسية بالضرورة، فضلًا عن الموجات السياسية العارضة التي وردت في

---

[١] شعبية شوقي وحافظ، نبيلة إبراهيم، طبعة خاصة ضمن أعمال مؤتمر المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٧م، مرجع سابق، جـ٣، صـ٢٣٨.

[٢] الفكاهة في مصر، شوقى ضيف، دار المعارف، القاهرة، صـ ٧١.

تضاعيف قصائد غير سياسية الموضوع بحكم هيكل النص الإحيائي- القائم على التجاور- والذي لا يجد في هذا الخلط الموضوعي غضاضة؛ بل يهتبل الفرصة لتحقيقه متى سنحت فيما يشبه الوثبة الشعورية.

وينطلق مقياس الالتزام من أن "لكل شاعر كبير رسالة ينطوي عليها، يشعر بها في داخله كأنها سبب وجوده ويعيها في إبداعه كأنها العلة الأولى التي يصدر عنها هذا الإبداع"[١]. وليس من الصحة في شيء ما يقال من أن الأديب يكتب لنفسه؛ ذاك أن الجهد المشترك بين الكاتب والقارئ هو الذي يؤدي إلى إظهار الموضوع المعين والمتخيَّل، والذي هو نتاج الفكر؛ وبناء على ذلك نستطيع القول بأنه "لا وجود للفن إلا من أجل الآخرين أو بواسطتهم"[٢]. ولعل هذا ما انتبه إليه الأستاذ العقاد بذكاء حين قال: " إننا لا نعرف شعرًا يرويه الناس، ويقال إنه يعني قائله وحده؛ لأن شعر النفس يعني كل نفس، والشعر الذي لا يعني قُرَّاءَه لا يستحق أن يُنْظَم، وما من شعر نُظِم إلا وهو بهذا المعنى شعر اجتماعي؛ لأنه يَبِين عن حالة المجتمع، ويؤثر فيها[٣]؛ فالأدب ثائر بالضرورة؛ بحكم أنه يكشف عن تناقضات الواقع ويمهد الطريق للمستقبل، والأدب الذي لا يقوم بهذا الدور يكشف عن سطحية في الإحساس، أو عن زيف فيه، وهو بالضرورة أدب غير جيد، ونحن لا نضع مقياسًا لمدى ثورية الأدب إلا مدى عمق إحساسه وتعبيره بصدقٍ عما يُحِسُّه[٤].

وتبقى المعضلة العملية ماثلة في أن الشاعر الملتزم حين يواجه قضية مصيرية كبرى، يتعين عليه أن يتخذ موقفًا دقيقًا "يحقق توازنًا مقعولًا بين ما تتطلبه مواقف هذه القضية من حرارة فى القول، وحماسة فى التعبير، ونبرة عالية فى

---

(١) الشاعر الحكيم .. قراءة أولية في شعر الإحياء، جابر عصفور، طبعة خاصة ضمن أعمال مؤتمر المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٧م، مرجع سابق، جـ ٣، صـ ٣١١.

(٢) فلسفة الالتزام في النقد الأدبي، رجاء عيد، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٨٨م، صـ١٩٨.

(٣) الفصول، عباس محمود العقاد، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان، ط٢، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م، صـ١٥٤.

(٤) حول الأديب والواقع، عبد المحسن طه بدر، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٨٠م، صـ٨٢،٨١ بتصرف.

الإيقاع، وما يتطلبه الفن من عمق"[1]. فالأديب المُجِيد يكون ذا وعي وبصيرة وقدرة خلاقة تجعله ينفذ إلى أغوار المجتمع يبحث عن مشاكله، ويفترض الحلول لها بعزم قوي وإرادة جبارة، صادرتين عن عمق نفسية الأديب[2]؛ فبون شاسع بين أن يصدر الشاعر الملتزم سياسيًّا عن صدق كافٍ يطبع شعره بروحه وأنفاسه، ويحمله ببصمته الخاصة، وبين أن يلوكه مسخًا باهتًا عديم اللون والطعم والرائحة، فهذا شاعر وذاك شاعر، وشتان بين اليزيدين في الندى، وما كل من حمل السلاح مقاتل!!

وتأتي أهمية قراءة الشعر ضرورة نقدية ماسة في مناخ كثر فيه أدعياؤه والدخلاء عليه؛ فمن حاصل تراكم الدراسات النقديَّة الجادَّة، يُماز الغث من السمين، والخبيث من الطيب، وتوضع النقاط على الحروف، وتُفكّ الالتباسات والحواجز الوهميَّة المُصْطَنعة بين القديم والجديد؛ "فالجديد فى الحياة الثقافية لا يتوقف، ولكنه لا يهدم القديم ولا يحل مكانه، فهم هناك (في الغرب) يجددون، ولكنهم لا ينسون تراثهم، ويتطلعون إلى المستقبل ولكنهم لا يتنكرون لماضيهم، ويبدعون ولكنهم لا يتخلون عما بين أيديهم، ويختلفون ولكن يبقى الجوهر، وتذهب الأيام بالزائف، والعبقرية وحدها هي التي تجدد وتبتدع أنماطًا، وتخلق أنواعًا، وتبني جديدًا، أما أن يخرج فسل لا يقيم بناء جملة، ولا يعرف كيف يقوِّم بيتًا من الشعر أو أن يقرأه دون أن يخطىء في الضبط، ثم يزعم لنفسه ريادة التجديد، فيحاول هدم ما هو قائم، ويدَّعى لنفسه ما ليس فيه ولا بإمكانه، فليس هذا تجديدًا ولا تحديثًا ولا تطويرًا، ولكنه التخريب بعينه. نتمثَّل ما عندنا ونعرف ما عند الآخرين بلا حدود، فى معرفة الصيرفي الحاذق، يميز بين الجواهر والأعراض، ونطوِّع ما نأخذ لحاجتنا، ونحن

---

[1] في الأدب العربي الحديث، عبد القادر القط، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠١م، صـ٣١.فصل بعنوان "شعراء المقاومة بين الفن والالتزام".

[2] مطالعات في الكتب والحياة، عباس العقاد، بيروت- لبنان، ط٣، ١٩٨٦م، صـ٣٣٦ بتصرف يسير.

بإزائه سادة حين نختار، لا عبيدًا له إرادتنا ملغاة، وقدرتنا على التمييز غائبة، فنسقط فى هاوية التقليد الأعمى[١].

على أن الخطر الأكبر على أدبنا لا يكمن فى الإزراء بأدبنا القديم أو الآداب الأجنبية القديمة أو المعاصرة، بل يتمثل فى اتجاه آخر مضاد، وأعنى به ذلك النشاط المحموم الذى يقوم به أدباء فى بعض البلاد العربية لصبغ الأدب العربى بصبغة "عالمية" زائفة. أدب "مختلط" لا ندرى أهو عربى أم غربى، قد يقرؤه بعض الشباب فيفغرون أفواههم دهشة؛ لأنه يبدو لهم جديدًا كل الجدة، في لغته العربية، وأخيلته الممزقة المضطربة. وعند الغرب هو بالٍ مستهلَك؛ لأنه أدب " الانحلال" الذي ازدهر منذ أواخر القرن الماضى، وتلذذ بالتعبير عن الخراب والموت. هذا الأدب الهزيل المريض يُصدَّر إلينا على أنه "آخر إنتاج المصانع الأوربية". وعلينا - إذا أردنا أن نكون أناسًا متمدنين نعيش فى العالم الحديث- أن نأكله ونشربه ونجن به[٢].

وإذا كان أحد الاتجاهات الحديثة يؤكد نفع الشعر وجديته على أساس أن الشعر يحمل معرفة، أو بالأحرى نوعًا خاصًا منها. فإن هذا لا يعفيه من أن يوفِّر لنفسه قدرًا من الفنية، يدخله في غمار الفن، بقدر ما يبعده عن الوعظ أو التأريخ، ويكاد أرسطو يؤدى مثل هذا المعنى فى مقولته الشهيرة" الشعر أكثر فلسفية من التاريخ" [٣]؛ فالشعر كائن متمرد لا يشفع له عن ذويه وسدنته شيء غير ما ينضوي عليه من مائية وعذوبة وصدق وشاعرية، بالغًا ما بلغ من نبل الغاية وشرف المقصد وجمعية الهدف. ولقد عانى الشعر العربي رَدَحًا من الزمن نير المناسبات، التي يجرد الشعراء فيها من أنفسهم مؤرخين تارة ووعاظ تارة أخرى، وذاك جرم بالغ، تولوا كبره وأعانهم عليه قوم آخرون!

---

(١) مناهج النقد الأدبي، إنريكِ أندرسون إمبِرت، ترجمة: الطاهر أحمد مكي، مكتبة الآداب، القاهرة، ١٤١٢هـ / ١٩٩١م، د،هـ من مقدمة المترجم.

(٢) تجارب في الأدب والنقد، شكري عياد، أصدقاء الكتاب للنشر والتوزيع، القاهرة، ط٢، ١٩٩٤، صـ١٦.

(٣) نظرية الأدب، رنيه وليك، وأوستن وآرن، تعريب: عادل سلامة، دار المريخ، المملكة العربية السعودية، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، صـ٤٧.

على أنني لا أريد أن يفهم من كلامي هذا سوى رفض الشعر الفاتر الذي لا نصيب له من القضية التي يزعم التعبير عنها غير عنوانه، أنني لا أريد لشعرائنا أن ينسلخوا من مجتمعاتهم، لكنني في الوقت ذاته لا أريدهم أن يعيدونا للزمن الذي كان داود بركات يفخر فيه بأن شعر شوقي سِجِلٌّ لتاريخ مصر، ولا أبالغ إذا قلت إن شعر اللحظة لا يتجاوز في آذان متلقيه اللحظة، وإن شعر المناسبة يزول بزوال المناسبة، وفق القانون الإلهي: "فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض"!

وليس نموذج "الشابي" في "إرادة الحياة" منا ببعيد، حين ارتجت بها الميادين العربية لإلهاب حماس الأحرار في ثورات الربيع العربي، وصدحت منتشيةً بها إبانها، فقد نفذ لقلوب المتلقين- بعد وفاته بعشرات السنين- من أقصر طريق؛ إذ لمس جوهر التجربة الإنسانية بشفافية، ولم يولول ويندب كما يفعل سواه، "فالأدب الذي هو أدب ليس إلا رسولًا بين نفس الكاتب، ونفس سواه، والأديب الذي يستحق أن يدعى أديبًا هو من يزوِّد رسوله من قلبه ولبه [1]. وفي تقدمته لديوان الكيلاني سند يقول الأستاذ محمود أمين العالم: " لا يشترط بالضرورة أن يقتصر تعبيرنا الأدبي أو الفني على القضايا الوطنية في صورة جهيرة مباشرة، وأن يكون كل تعبير عداها متخلفًا أو رجعيًّا؛ فليس الأدب أن يتحول الشعر منبرًا للقضية، بل يكفي أن يبرز الجانب الإيجابي من قصة حياتنا أيًّا كانت طبيعة هذه القصة؛ فقد تكون قصة حب، وقد تكون مجرد حكاية بسيطة للأطفال يتسامرون بها، وقد تكون أسطورة عاطفية غاية في الشفافية ... وهكذا"[2].

وتقديري أن الشعر السياسي في مصر قد طرأ عليه تحول جدير بالتسجيل، مؤداه أن السلطة انتقلت من الأمراء والسلاطين إلى الشعب، وهذا من شأنه أن يخلق قيدًا ذهبيًّا من نوع خاص؛ حين يطالب الشاعر بمسايرة اللحظة الزمنية- ولو لم ينضج انفعاله أو يتبلور- قبل أن يفوته القطار، وتفقد الجماهير

---

[1] الغربال، ميخائيل نعيمة، دار صادر، بيروت- لبنان، ط٨، ١٩٦٩م، صـ٢٥.
[2] نقلا عن: حول الأديب والواقع، عبد المحسن طه بدر، مرجع سابق، صـ١٥.

حماستها، ويتخلف عن القافلة، وكما أنه يلزمه باختيار موضوعات معينة وزاوية النظر التي عليه أن يتناولها بها، فإنه يضطره بالقدر ذاته إلى تهميش قضايا أخرى لم تتصدر الصفحات الأولى من الصحف، أو تأخذ المانشيتات الرئيسة، وقد يكون في تعرية الواقع الاجتماعي/السياسي بدلًا من مداهنته، وكشفه بدلًا من غض الطرف عنه، مزيدًا من الحض على رفضه والثورة عليه، وقد يكون هذا أنفع للأدب والمجتمع كليهما من أدب دعائي ساذج يفرض على صاحبه موضوعه وزاوية معالجته سلفًا، على سبيل الإلزام لا الالتزام!

وبعد.. فقد وفت الصفحات السالف تحبيرها- فيما آمل- بالإجابة عن سبب اختيار كل كلمة في عنوان رسالتي، متدرجة من نهايته لبدايته؛ فمن جذور الموازنة، لقيمة الموازنة بين شوقي وحافظ عامة، ثم مشروعية الموازنة بين سياسياتهما خاصة، إلى معيار الالتزام السياسي، والوظيفة المنوطة بالشعر، وأخيرًا علة أن تكون دراسة كهذه فنية.

وإن من العرفان بالجميل أن أشير- في هذا المقام- إلى أن فكرة موضوع هذه الرسالة، جاءتني من وحْي محاضرات أستاذي الملهِم "أبي همام"، وأنا لم أزل طالبًا بالفرقة الثانية بكلية دار العلوم، قبل زهاء عقد من الزمان، وكان فضيلته - وما زال- لا يدرس سوى لطلاب الفرقة الرابعة، ولم يكن أمام مريديه من طلاب الفرق الأخرى إلا أن يتركوا محاضراتهم " ليشهدوا منافع لهم" في محاضرة الأحد المشهودة، وكان من يمن طالعي أنني كنت أحد أولئك المريدين، وكان الطلاب كثيرًا ما يسألون الشيخ عن رأيه في شوقي، لعلمهم بمكان أستاذنا من العقاد، وفي إحدى هذه المحاضرات، وإجابة عن بعض هاتيك الأسئلة وصف شيخي "أبو همام" شوقي بأنه "ماكينة شعر"، فاستوقفني وصفه ذاك، وكنت أقول في نفسي: إن أستاذي بهذه الصفة كأنما يقول لشوقي "يا أحمر الخدين"! وما ضرَّ شوقي أن يكون " ماكينة شعر"، " أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله"؟ ثم كشفت لي الأيام والليالي أن هذا الوصف أخْطر ما يمكن أن يوصف به شاعر على الإطلاق، وأن أستاذي بهذا إنما سَحَب البساط من تحت قدمَي شوقي، وأصابه

في مقتل. ثم كان لكتاب "الحوار الأدبي" للعالم الجليل د."محمد أبو الأنوار" أثر ثانٍ في إذكاء جذوة هذا الموضوع، فأردت أن أستبين حقيقة الأمر بدراسة فنية توازن بين سياسيات شوقي وصنوه "حافظ"، بوصفها الفضاء النقدي الأرحب لمجمل الحركة النقدية المثارة حولهما.

وتأتي هذه الدراسة استكمالًا لـجهود مجموعة من **الدراسات السابقة** في حقل الشعر السياسيي المصري في حقب متباينة من تاريخنا الحديث؛ وفي مقدمتها بالطبع دراسة أستاذي الجليل الدكتور "عبد المنعم تليمة"، وهي دراسة رائدة فتحت الباب لغيرها على النحو الذي يكشف عن العرض التالي:

- الشعر السياسي في مصر من ثورة عرابي إلى الحرب الأولى، عبد المنعم محمد إبراهيم تليمة، رسالة ماجستير بإشراف أ.د. سهير القلماوي، ١٩٦٤م، مودعة بمكتبة كلية الآداب، جامعة القاهرة.

- الشعر السياسي في مصر من ١٩٨٠ إلى ١٩٩٧، مشهور عبد الله الأنور فواز، بإشراف أ.د. محمد عبدالعزيز الموافي، ١٩٩٣م، مودعة بمكتبة كلية دار العلوم، جامعة القاهرة.

- الشعر السياسي في مصر من عام ١٩١٤م حتى ١٩٦٧م .. دراسة فنية، أحمد أحمد حافظ عجوة، بإشراف أ.د. صلاح الدين رزق، ٢٠٠٩م، مودعة بكلية دار العلوم، جامعة القاهرة.

هذا فيما يتصل بحقل الشعر السياسي، وهو المسرح الأقرب لدراستي هذه، وإن يكن الوفاء يقتضي أن أشيد بكل الجهود الجادة القيمة التي اجتهدت ما وسعها الاجتهاد في حدود الأدوات والمناهج النقدية المتاحة في أن تتناول أيًّا من الشاعرين بالدراسة، وأخص بالذكر الدراسة القيمة التي قدمها العالم الجليل أ.د. أحمد الحوفي، عن "وطنية شوقي". فقد أفدت من الجميع بلا استثناء، محاولًا أن تضيف دراستي شيئًا يكسبها مشروعية الخروج للنور، وقد رأيت هذه الإضافة في عمق التحليل، والتركيز على الجوانب على الفنية التي بها يكون الشعر شعرًا، ثم

في تحري الإنصاف، والتجرد من أحكام القِيمَة، والتصورات المسبقة، والقوالب الجاهزة، ملتزمًا في هذا بكل ما يوفرانه لي المنهجان الفني والتاريخي من تقنيات نقدية، وآليات معالجة.

وتنطلق هذه الدراسة من فروض ثلاثة ؛ هي:

١- توجد فروق دالة بين موقف النص السياسي عند شوقي ونظيره عند حافظ.

٢- توجد أوجه شبه جوهرية بين تقنيات تشكيل القصيدة السياسية عند حافظ وشوقي.

٣- توجد فروق دالة بين موقف سياسيات شوقي وحافظ ونظيره في سائر شعراء النهضة.

ولما كان الهدف الرئيس لهذه الدراسة مَنْح النصِّ السياسي نصيبه الأوفى من الدرس الفني، بعيدًا عن الأحكام المسبقة، في ضوء ما يتيحه النقد الحديث من صيغ ومقولات، كان علي أن أحدد بدقة المادة السياسية التي سأخضعها لهذه الدراسة الفنية من واقع ديواني الشاعرين، وباستشراف النص السياسي- ليس إلا- اجتمع في يدي أربعة آلاف بيت لشوقي، وثلاثة آلاف أخرى لحافظ، أخضعتها جميعا لسائر تقنيات التحليل الفني، اللهم إلا البنية الإيقاعية التي استبعدت في بعض عناصرها ما جاء من السياسيات عرضًا في قصائد أخرى غير سياسية. كما أنني رفضت تجزئة شعرهما إلى (وطنى) و(سياسى)؛ فهي بالفعل "تجزئة غير صحيحة تؤدي إلى تمزيق القصيدة الواحدة أحيانًا إلى أشلاء هزيلة، إذْ يتداخل الجانبان كثيرًا فى القصيدة الواحدة تداخل السّدى واللحمة[١].

في هذه الدراسة التطبيقية .. ما بين مقدمة ومهاد تاريخي في صدرها، وخاتمة في عجزها، ناقشتُ - في أبواب ثلاثة موزعة على فصول ستة - بانوراما الحركة النقدية حول سياسيات الشاعرَين، ثم أفردت سياسيات كل منهما بتحليل فني ضافٍ للمعمار الفني وتشابك البنى النصية؛ لغوية وإيقاعية وتصويرية، ثم وازنت

[١] حافظ إبراهيم.. دراسة تحليلية لسيرته وشعره، السعيد محمود عبد الله، دون بيانات ، صـ١٠٣.

بين سياسات الشاعرَين ونصيبها من تماس الموضوع وتحولات الموقف، ثم قيَّمت الحركة النقدية المثارة حول الشاعرين في ضوء نظرية الشعر والمصادر الفنية.

وقد آثرت أن لا يخرج المهاد التاريخي عن دوره الإضائي الكاشف، فرأيت أن ينتظم في إشارات مقتضبة، تعرف بأبرز الزعماء والساسة من جانب، ثم تعرض لأبرز الأحداث السياسية التي مرَّت بها مصر على مدار قرْن من الزمان يبدأ من عام ١٨٣٢م، وينتهي بوفاة الشاعرين عام ١٩٣٢م، ولمن يرغب في الاستزادة حول حدث منها أن يعود لكتب التاريخ المفصلة.

كما أنني آثرت ألا يقف الجهد الذي بذلته في تحديد الشعر السياسي لكل من الشاعرين عند دراستي فحسب، فخصصت لمطالع تلك السياسيات فهرسًا من ملحقين في نهاية الرسالة يمكن لمن يرغب في تناول تلك السياسيات من أية زاوية نقدية أخرى أن يعتمد عليه، وقد راعيت في كل أن أذكر موضع القصيدة من الديوان، وأحدد وزنها [١] وعدد أبياتها، كما رتبتها بأحرف الروي، مؤخرًا المنوّعة القافية، ورتبت المطالع داخل الحرف الواحد تبعًا لقوة حركة الروي، على أنني اكفيت في هذا الفهرس بالقصائد السياسية الكاملة، ولم يكن بوسعي إيراد الأبيات السياسية التي جاءت عرضًا في قصائد أخرى غير سياسية؛ لأن هذا كان يقتضي ذكر الأبيات نفسها ولا تكفي الإشارة لمطالعها، الأمر الذي من شأنه أن يزيد من حجم هذه الرسالة، والمشرحة ليست بحاجة لمزيد قتلى!!

وإن يكن الباحثون قد درجوا في مقدمات رسائلهم على سرد قائمة مطولة من المشكلات التي واجهتم في أثناء إعداد الرسالة، فإنني أعتذر عن سرد مثل هذه القائمة، لا لأنني لم تجابهني عقبات، ولكن لسببين اثنين؛ الأول: أن هذه هي الضريبة المعلومة من البحث العلمي بالضرورة، والشكوى منها تعني عدم تصورها ابتداء، والثاني: أنني قد نسيت عنتها تمامًا الآن بعد الانتهاء من الرسالة، وتحوَّلت في اللاوعي إلى ذكريات جميلة أبْسم حين أذكرها، ولا حاجة لي بأن أثير

[١] هذا فيما يتصل بديوان حافظ، أما الشوقيات فقد كنت أراجع الوزن الذي كتبه شارح الديوان لأتأكد من صحته، وقد وقفت على بعض الأخطاء في تحديد أوزان بعض القصائد، وصوبتها، وأشرت إلى ذلك في موضعه من الفهرس.

في القارئ شعوري الخوف والشفقة- بالاصطلاح الأرسطي- بعدما رفع الله عنا إصـرنا والأغلال التي كانت علينا.

وإذا كانت أية دراسة شعرية جيدة - فيما يرى أستاذي القدير الطاهر أحمد مكي- تنهض على دعامتين أساسيتيـن؛ شاعر متميز وناقد موهوب [1]، فإنني- وقد توفرت على دراسة شاعرين متميزيـن في قامتي شوقي وحافظ- أرجو أن أكون قد هديت بدوري لما أفك به شفراتهما، وأحدد ما جمعهما من المشترك الفني ونقاط التماس من جانب، ومساحة التمايز ومؤشرات التحول من جانب آخر، على النحو الذي يكسب هذه الموازنة قيمتها بالقدر الذي يؤكد مشروعيتها مدخلًا فنيًّا لدراسة سياسيات شاعرَين "ملآ الدنيا وشغلا الناس"!!

***

[1] أبو همام شاعرًا، أحمد سيد شرقاوي، مكتبة النصر، القاهرة، د.ت، صـ (د) من مقدمة بقلم أ.د. الطاهر أحمد مكي.

مهاد تاريخي

أولًا . بيئة النهضة الحديثة:

بينما يؤرخ أغلب المؤلفين لبواكير النهضة الحديثة في مصر بقدوم الحملة الفرنسية، وما صحبها أو تبعها من تعليم وبعثات ومدارس وترجمة وطباعة وصحافة وجمعيات ومكتبات[١]. فإن آخرين يرون أن "مصر لم تستفق من غفلتها أول مرة على قرع الجيش الفرنسى، ولم تثر على الحكم المطلق مقتدية بثورة فرنسا فحسب فى آخر القرن الثامن عشر. فليس من الطبيعى أن تتطلب أمة مثلًا فى حياتها تشبهًا بغيرها من الأمم إن لم تكن متبرِّمة بحالها، بصيرة بما تعاني من عسف ومساءة، توَّاقة إلى أن تُبدل بحالها خيرًا منها، جادة فى مسعاتها لبلوغ أهدافها. ولقد كانت مصر قبل الثورة الفرنسية، وقبل غزوة نابليون تسخط حالها السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وتشرئب إلى حياة خير من هذه الحياة، وتتّخذ من الوسائل ما يكفل لها أن تحقق أملها. وبالجملة فقد سبقت الحملة الفرنسية محاولات مستميتة للاستقلال بمصر على يد "إبراهيم كتخدا" و"إسماعيل رضوان" و"علي بك الكبير" و"محمد أبو الدهب".

ولقد كان لهذا أثره في موقف الشعب المصري حين هبَّ يقاوم الاحتلال الفرنسي في شتى أقاليم مصر ببسالة شهد بها الجنرال الفرنسى "منر" حين قال: "لقد دافع الأعداء- يقصد المصريين- عن المدينة بشجاعة فائقة وثبات عظيم". كما لم تهدأ القاهرة حتى ثارت ثورتها الثانية فى ٢٠ مارس ١٨٠٠م أيام "كليبر". وكل هذا يثبت كراهية المصريين للاحتلال وتعلقهم بالاستقلال وجهادهم فى حماية الوطن. وهكذا لم يستَفق المصريين على دوي الحملة الفرنسية بقدر ما كانت ريحًا هبت على النار المتقدة فأذكتها وأورتها فكانت ثورة ١٨٠٥م[٢].

---

[١] الجامع للأدب الحديث، حنا الفاخوري، صـ٧.

[٢] وطنية شوقي .. دراسة أدبية تاريخية، محمد أحمد الحوفي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٨م، صـ١٢،١١.

وقد ظن المصريون حين أقلعت الحملة عن ديارهم أنهم يبدأون تاريخًا جديدًا لأمة مجاهدة متحررة، فاختاروا "محمد علي" واليًا عليهم، ولكنه لم يَجْرِ معهم إلى آخر الشوط الذي كانوا يحلمون به؛ إذ نكَّل بمن اختاروه منهم. وكان "نابليون" قد أقام مجموعة من الدواوين، سلبها حقوقها، فقضى بذلك على آمال المصريين ومطامحهم فى اشتراكهم مع الحكام فى حكم أنفسهم وتدبير شئونهم ... ومن "محمد علي" إلى "عباس"، ومنه لـ"سعيد" ثم لـ"إسماعيل" الذي فتح قناة السويس، وكان لهذا الفتح أيضًا آثار سياسية بعيدة فى العلاقات الدولية، مما نشأ عنه فيما بعد احتلال الإنجليز لمصر.

فقد أثر فتحُ هذه القناة في مستقبل مصر السياسي، وفي العلاقات بين الدول، كما أثر في العلاقات العقلية على اختلاف أنواعها؛ سواء فيما يتصل بنا أو فيما يتصل بالأوربيين بعضهم ببعض؛ لأن العلاقات العقلية والمادية جميعًا متشابكة متفاعلة. وكَثُرَ إقبال الأوربيين على مصر، كما كثر أو زاد إقبالُ المصريين على أوروبا، وأخذت تُرفع الحواجز التي تفصل بين الحياتين المتقابلتين: حياة المصريين وحياة الأوربيين. وقد أنشأ "إسماعيل" مجلس الوزراء ومجلسًا نيابيًّا، ووضع كثيرًا من القوانين على النمط الأوربي.

وما إن نصل إلى عصر "إسماعيل" حتى نلاحظ ما يمكن أن نسميه "نمو النزعة القومية"؛ فقد كان الشعب المصري في عصر "محمد علي" و"عباس" لا وجود له سوى الوجود الآلي؛ فهو آلات أو أدوات تستغل لمجد "محمد علي" وأسرته وبطانته من الترك ... ومع نمو الرأي العام والنزعة القومية، سرعان ما ظهرت صحف مصرية مثل جريدة مصر والوطن تنقد صراحة سياسة "إسماعيل"، وتنادي بأن " مصر للمصريين". وسقطت وزارة نوبار سنة (١٨٧٩م)، وتطورت الحوادث، ونهضت هذه الروح نهوضًا قويًّا، كان من نتائجه ثورة الجيش بقيادة "عرابي" ضد الضباط الأتراك الجراكسة في عهد "توفيق" سنة (١٨٨٢م). واستعان "توفيق" ضد الحركة بحراب الإنجليز التي أغمدوها في صدور الشعب، ومن حينها أصبحت مصر خاضعة لاحتلال إنجليزي بغيض، وبدا